المحاضرة الثانية بكر بن حماد

استطاع الشاعر بكر بن حماد أن يقدم لنا نماذج شعرية غاية في الجمال والإبداع، تنوعت بين المدح والرثاء والهجاء والوصف و الزهد والوعظ والاعتذار، أظهرت هاته النماذج تصوراً دقيقاً لآلامه وأحزانه وشوقه بل حبه وعزته وهي تعبير صادق يختلج عاطفة جارفة لشاعر متميز خبر دربة الحياة وخاض في كل الفنون، ومن بين هاته النماذج الساحرة نورد منها:

ثار بكر بن حماد على الإمام أبي حاتم يوسف الرستمي ثم عاد فاعتذر إليه عن اشتراكه في الفتنة التي ثارت بقصيدة يقول فيها:

و مؤنسة لي بالعراق تركتها*** و غصن شبابي في الغصون نضيرُ
فقالت كما قال النواسيّ قبلها*** عزيز علينا أن نراك تسير
فقلت جفاني يوسف بن محمّد*** فطال عليّ الليل و هو قصير
أبا حاتم ما كان ما كان بغضة*** و لكن أتت بعد الأمور أمور
وأكرهني قوم خشيت عقابهم*** فداريتهم، و الدائرات تدور
وأكرم عفو يؤثر الناس أمره *** إذا ما عفا الإنسان وهو قدير10

أما في الرثاء فله قصيدة حزينة مؤثرة تعد من عيون الشعر العربي في الرثاء على فراق ابنه عبد الرحمن الذي قتل سنة 295 هـ على مشارف مدينة تاهرت والتي يقول فيها11:

بكيت على الأحبة إذ تولـوا *** و لو أني هلكت بكوا عليَّا
فيا نسلي بقاؤك كان ذخرا *** وفقدك قد كوى الأكباد كيَّا
كفى حزنا بأنني منك خلو *** وأنـك ميّت وبقيـت حيَّا
دعوتك بابنيَّ فلـم تجبنـي *** فكانت دعوتي يأسًا عليَّا

وقال يرثي ولده عبد الرحمان أيضا 12:

وهون وجدي أنني بك لاحق *** وأن بقائي في الحياة قليل
بلى ربما دارت على القلب لوعة *** فيرجعها صبر هناك جميل
وأن ليس يبقى للحبيب حبيبه *** وليس بباق للخليل خليل
و لو أن طول الحزن مما يرده *** للازمني حزن عليه طويل

كما رثى مدينة تاهرت بعد أن خربها العبيديون (الفاطميون) سنة 296هـ فقد استولوا عليها و عاثوا فيها فسادا و أحرقوا مكتبتها الضخمة "المعصومة" التي تضم أكثر من ثلاثمئة ألف مجلد في شتى العلوم والفنون في قصيدة تعد آخر ما

قاله من شعر13:

زرنا منازل قوم لم يزورونا *** إنا لفي غفلة عما يقاسونا
لو ينطقون لقالوا: الزاد، ويحكم *** حل الرحيل فما يرجو المقيمونا
الموت أجحف بالدنيا فخربها *** وفعلنا فعل قوم لا يموتونا
فالآن فابكوا فقد حق البكاء لكم *** فالحاملون لعرش الله باكونا
ماذا عسى تنفع الدنيا مُجمِعها *** لو كان جمع فيها كنز قارونا

أما في الهجاء فإلى جانب هجائه لدعبل الخزاعي في حضرة الخليفة العباسي المعتصم فقد هجى عمران بن حطّان الخارجيّ المتوفي 84 هـ الذي أثنى على عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، وهي القصيدة التي قيدتها كتب التاريخ والأدب وانتشرت في كل مكان والتي يقول فيها14:

قل لابن ملجم والأقدار غالبةٌ *** هدمت ويحك للإسلام أركانا
قتلت أفضل من يمشي على قدمٍ *** وأوّل الناس إسلاماً وإيمانا
وأعلم الناس بالقرآن ثم بما *** سنّ الرسول لنا شرعاً وتبيانا
صهر النبيّ ومولاه وناصره *** أضحت مناقبه نوراً وبرهانا
وكان منه على رغم الحسود له *** مكان هارون من موسى بن عمران

إلى أن يقول:

فلا عفا الله عنه ما تحمّله *** ولا سقى قبر عمران بن حطّانا
لقوله في شقيٍ ظلّ مجترما *** ونال ما ناله ظلما وعدوانا
"يا ضربةً من تقيٍّ ما أراد بها *** إلا ليبلغ من ذي العرش رضوانا"
بل ضربةٌ من غويٍّ أوردته لظىً *** فسوف يلقى بها الرحمن غضبانا
كأنّه لم يرد قصداً بضربته *** إلا ليصلى عذاب الخلد نيرانا

كما يروي لنا في قصيدة أخرى ما دار بين علي بن أبي طالب وعبد الرحمن بن ملجم الذي كان يعد سيفه لقتله يقول فيها 15:

وهزّ عليٌّ بالعراقين لحيةً *** مصيبتها حلّت على كلّ مسلم
فقال: سيأتيها من الله حادث *** ويخضبها أشقى البريّة بالدّم
فباكره بالسيف شلّت يمينه *** لشؤم قطام عند ذاك ابن ملجم
فيا ضربةً من خاسرٍ ضلّ سعيه *** تبوّأ منها مقعداً في جهنّم
ففاز أمير المؤمنين بحظّه *** وإن طرقت فيه الخطوب بمعظم

ألا إنّما الدنيا بلاءٌ وفتنةٌ *** حلاوتها شيبت بصابٍ وعلقم
وإلى جانب ذلك كله برع بكر بن حماد في شعر الزهد والوعظ والتصوف فنظم أشعاراً راقية وهو الذي اشتهر بهذا النوع من الشعر حتى شُبه بأبي العتاهية بعد أن نحا فيها منحى الزهد والتأمّل والتذكير بالموت ، ويقول في مطلع قصيدة "السفر من غير زاد" 16:
تبيت على فراشك مطمئنا *** كأنك قد أمنت من المعاد
أما في قصيدة بعنوان "وقفة بالقبور" 17 فنراه أبدع أيما إبداع في وصف المقابر وحال الأموات بها حين يقول:
قف بالقبور فناد الهامدين بها *** من أعظم بليت فيها وأجساد
قوم تقطعت الأسباب بينهم *** من الوصال وصاروا تحت أطواد
راحوا جميعا على الأقدام وابتكروا *** فلن يروحوا ولن يغدو لهم غاد
والله لو ردوا ولو نطقوا *** إذا لقالوا: التقى من أفضل الزاد
إلى أن يقول:
وكلنا واقف منها على سفر *** وكلنا ظاغن يحدو به الحادي
في كل يوم نرى نعشا نشيعه *** فرائح فارق الأحباب أو غادي
الموت يهدم ما نبنيه من بذخ *** فما انتظارك يا بكر بن حماد
وفي الخلاصة تعكس أشعاره تجربته الزهدية التي عبر فيها عما يختلج في نفسه وبهذا يكون بكر بن حماد صاحب قدم السبق في إدخال مثل هذا النوع من الشعر إلى المغرب الأوسط متأثرا برحلته إلى المشرق ونهله من شعراء القوم هناك على شاكلة الشاعر المتألق أبي العتاهية ، حيث نجده في قصيدة أخرى يذكر نفسه فيها بالموت و ينهاها عن الصدود والإعراض ويجلدها بمشاهد القبر الموحش حين يقول 18:
لقد جمحت نفسي فصدت وأعرضت *** وقد مرقت نفسي فطال مروقها
فيا أسفي مـــن جنـــح ليل يقودها *** وضوء نهار لايـــزال يسوقها
الى مشهد لابـــــدّ لي مـن شهوده *** ومن جزع للموت سوف أذوقها
ستأكلها الـــديدان في باطن الثرى *** ويـــذهب عنها طيبها وخلوقها
مواطن للقصاص فيها مظالم *** تؤدي إلى أهل الحقوق حقوقها

- ثناء العلماء على بكر بن حماد: اشتهر بكر في علم الحديث النبوي الشريف ومعاصرته لعلماء أفاضل وهنا يورد تلميذه أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام التميمي في كتابه "المحن" في باب "أخبار المحنة في خلافة مأمون" حيث ينقل أخبار وآراء و أقوال علماء السنة عن طريق بكر بن حماد عن شيوخه، واعتصام بكر بن حماد وجماعته بأقوال أهل السنة والجماعة ورفضوا رأي المعتزلة وتعاليمها، أين يقول في صفحة 460: "وذكر عمر عن بكر بن حماد أن

الهمداني امتحنه المأمون في القرآن وأنه احتج على المأمون بآيات من كتاب الله فثبت الهمداني بعد أن أقعد في النطع مكتوفا ورفع السيف على رأسه فما انثنى ولا أجاب ثم نجاه الله عز وجل مما أريد به..." 19
وحدثني بكر بن حماد قال حدثنا أبو نجدة قال حدثنا كثير بن سليم قال لقيت أنس بن مالك بواسط القصب فسمعته يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن هذه الأمة أمة مرحومة جعل الله بأسهم بينهم فإذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل رجل منهم رجلا من المشركين أو قال من أهل الكتاب فيقال يا مسلم هذا فداؤك من النار.20
قال عنه البكري: "أنه كان ثقة مأمونا حافظا للحديث"21 –
وقال عنه ابن عذارى: "كان عالما بالحديث وتمييز الرجال وشاعرا مفلقا"22 –
قال عنه ياقوت الحموي في معجم البلدان : "بكر بن حماد أبو عبد الرحمن ، – كان بتيهرت وهو من حفاظ الحديث وثقات المحدثين المأمونين"23.
وختاما يمكن القول أنه ورغم ما وصلنا من شعر بكر بن حماد في مختلف موضوعاته التي تم جمعها في ديوانه المسمى "الدر الوقاد"24 ، إلا أنه أجاد في سبك قصائده التي نظمها في فنون عدة تنوعت بين ضروب الشعر من رثاء ووصف ومديح وهجاء وشعر للتأملات مؤكدا من خلالها على تميزه بصورة لافتة في شعر التصوف والزهد، مشكلا بذلك مدرسته الشعرية الخاصة به.

المحاضرة الثالثة شعر الأمير عبد القادر

أولاً: الأمير عبد القادر ونسبته

هو عبد القادر بن محيي الدين بن مصطفى بن محمد يرجع في نسبه إلى إدريس الأكبر بن عبد الله المحصن بن حسن المثنى بن حسن السبط بن علي بن أبي طالب، وأمه فاطمة الزهراء بنت سيد الخلق محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقد كانت أسرة الأمير عبد القادر تعتز بامتداد حلقاتها إلى هذا المعدن الشريف، ففي القرن الثامن هاجر إدريس بن عبد الله الكامل بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المغرب، هارباً من بطش العباسيين، وأنشأ دولة الأدارسة وعاصمتها فاس، ودام حكمها حتى النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وبعد أن سكنت بعض سلالات العائلة الكبيرة الأندلس، انتقل أحد أجداده عبد القوي الأول في نهاية القرن الخامس عشر ـ بعد سقوطها عام (1492م) ـ واستقر بقلعة بني حماد قرب سطيف. أما جده مصطفى فقد أسس الزاوية القادرية، نسبة إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني،

بعد أن زار مدينة بغداد عام (1791م). واشتهرت أسرته بالورع، وكانت قدوة للناس في الجهاد والعلم، وتوفي جده مصطفى بعين غزالة، قرب مدينة درنة في إقليم برقة شرق ليبيا عام (1797م) عند عودته من الحج، ودفن في نفس المكان ومايزال قبره معروفاً حتى الآن.

ولد والده محيي الدين بقرية القيطنة عام (1776م)، ودرس على يد أبيه مصطفى، وورث عنه مشيخة الزاوية القادرية، واشتهر والده بسداد الرأي، وغزارة العلم، وقاوم ظلم بايات الغرب الجزائري منذ عهد علي قارة الذي حكم من عام (1812م) إلى (1817م). وآخرهم حسن بن موسى الذي حكم من (1827م) حتى (1830م)).

ثانيًا: مولده ونشأته

ولد في (25 سبتمبر 1807م) في قرية القيطنة، وأمه السيدة بنت عبد القادر ابن خدة، وهي تنحدر من بيت علم وتقوى، من أولاد سيدي عمر بن دوحة، تلقى دروسه الابتدائية في مسقط رأسه تحت إشراف والده؛ وختم القرآن الكريم قبل أن يبلغ الحادية عشرة، وتعلم مبادئ شتى العلوم اللغوية والشرعية، ونال درجة الطالب، وكلف بتحفيظ القرآن للأطفال، وإلقاء الدروس والتفسير في الزاوية. ومن أجل إتمام دراستهسافر عام (1821م) إلى مدينة أرزيو الساحلية؛ التي تقع شمال مدينة معسكر، على بعد حوالي سبعين كيلو متراً، وذلك على يد القاضي الشيخ أحمد بن الطاهر البطيوي؛ الذي كان مشهوراً بغزارة العلم وسعة الاطلاع، وبعدها رحل إلى مدينة وهران إلى مدرسة العالم الفقيه أحمد بن خوجة، صاحب رائعة در الأعيان في أخبار وهران، وتوسع في المعارف اللغوية والفقهية والنحو والبيان والفلسفة والمنطق وصقل ملكاته الأدبية والشعرية، واجتهد في حضور حلقات العلم لعلماء وهران، مثل الشيخ مصطفى الهاشمي والشيخ بن نقريد، وقضى عامين كاملين في هذه الرحلة العلمية، وعاد إلى مسقط رأسه وتزوج بابنة عمه الآنسة خيرة بنت أبي طالب عام (1823م) وأقام في القيطنة معلمًا.

وكانت له رحلات علمية للقرويين والزيتونة، وكانت البيئة التي عاش فيها بيئة إسلامية وتربوية إيمانية واجتماعية متماسكة، وفي ظلها تكونت شخصيته، وهي التي أثرت في تكوينه النفسي والجسماني والفكري والاجتماعي والسياسي، وهذا التكوين يعود إلى عوامل منها:

– العامل الوراثي والبيولوجي والعقلي للأمير.

البيئة الثقافية والاجتماعية التي نشأ في ظلها وعاش فيها –.
لقد سمع الأمير عن ذلك التصوف من والده الذي لاشك قد حُفر في ذاكرته، وهو محاربة والده لأصحاب الطرق الصوفية الشاذة.
فقد جاء في كتاب تحفة الزائر: أصل ابن الشريف من الكسانة قبيلة بوادي العبد قرب غريس، أخذ العلم في صغره عن سيدي محيي الدين في مدرسة القيطنة ثم رحل إلى المغرب الأقصى ولقي الشيخ العربي الدرقاوي، وسلك طريقته وقفل راجعاً إلى وطنه، وجاء إلى حضرة سيدي محيي الدين زائراً، وفي بعض الأيام تكلم بحضرته بما يوجب تأديبه شرعاً، فأدبه سيدي الجد بالسياط واستتابه.
فهذا الحادث التاريخي ليس دليلاً فقط على منزلة والد الأمير عبد القادر ومكانته الاجتماعية والدينية، إنما هو دليل على الوقوف في وجه أصحاب الطرق المنحرفة، ومحاربة البدع ومحاربة الابتعاد عن الشرع والسنة والإجماع، والأمير عبد القادر أيضاً أثناء حكمه وفي عهد دولته حارب أصحاب الطرق المنحرفة، ووقف في وجه نشر دعوتهم وفضح أمرها.
فالطرق الصوفية في شمال إفريقيا أحد الروافد الثقافية والفكرية، وقد تعامل معها العلماء وفق المعايير العلمية القائمة على العلم والإنصاف في الأفراد والمناهج، لقد كان السيد محيي الدين والد الأمير عبد القادر من الشخصيات المهمة في التأثير على ابنه الأمير، وكان رجلاً مهاباً محترماً، ليس لكونه قادرياً كما ترددده أقلام الدعاية ـ فقط ـ وإنما لكونه عالماً فقيهاً وحكيماً وشجاعًا، امتاز بالأخلاق الإسلامية، والصفات الحميدة، والنبل الكريم، وعلو منزلته العلمية، وهيبة قبيلته بني هاشم التي يمتد نسبها إلى الأدارسة وحتى عند ولاة العثمانيين كانت له منزلة خاصة، وكان مرهوب الجانب من قبلهم جميعًا بدافع تقدير ومحبة، فأمر طبيعي ظهور هذه الآثار الوراثية على أولاده، ومنهم الأمير عبد القادر، فقد برزت هذه الآثار على الأمير في سن مبكرة، من ذكاء ومواهب فكرية وسرعة بديهة وشجاعة ومهارة بفنون الفروسية، من ركوب الخيل والسباحة واستعمال السيف، إلى جانب نفسٍ أبِيَّةٍ وإيمان قوي ومحبة وجدانية وعقلية لخالق هذا الكون ومبدع تلك الطبيعة الغناء التي نشأ في أحضانها، فالحياة البسيطة في هذه المزرعة والمناخ السياسي الذي نشأ فيه، كان صحياً ومتماسكًا في جزء من دولة كبرى أمنت الاستقرار والازدهار للجزائر وحاربت البدع وأصحابها.

ثالثًا: الأوصاف المعنوية للأمير عبد القادر

لقد وصف العديد من المؤرخين الأذواق والعادات والسلوك الاجتماعي لعبد القادر، منها:

كان يزدري الترف في الملبس، فكانت كسوته بسيطة ولكنها نظيفة، كان غاية في التدين ويحمل دوماً مسبحة لا يقف عن التسبيح بها ذاكراً اسم الله، وكان باستطاعته امتطاء الفرس لمدة يوم أو يومين، وكان زاهداً مثالياً، كان الأكل عنده ـ على الأكثر ـ «الروينة» وهي نوع من العصيدة مصنوعة من طحين وحليب في كمية صغيرة، فلم يكن يقبل الطعام إلا لقوته وليس لذاته، في قلة الأكل وفرة للصحة هذا ما كان يقوله، وكان عفيفاً عن الأموال، وكان يمتنع من اقتطاع أي شيء من الخزينة العامة لأغراضه الشخصية، وكان يراقب موظفيه ويمنعهم من الإسراف، كما كان يحب الكتب، ويهتم بجمع المخطوطات، وكان يشجع الشعراء والكتاب الذين كانت أناشيدهم الملحمية تغذي إيمان المقاتلين، وكان يتذوق الشعر، وله ملكة شعرية، تدلنا أشعاره عليها، وتسجل أشعاره فترة تجديد في الشعر الجزائري، يكمن طابعها الجذاب دائماً في كونها ذات علاقة بالفعل والعمل وأنها تحمل إيمانه الوطني، اللغة، الصورة المجازية، تراكيب الأسلوب.. كلها مهدت لتجديد أدبي ينسجم مع مرحلة النضال والكفاح والجهاد والبناء.

لم يكن قاسيًا بطبعه، وخيرات الأرض لم تسيطر على قلبه، وقتاله للمسيحيين لكونهم معتدين غاصبين لا لدينهم، كان يؤم جنوده للصلاة يومياً، وكان يتأمل ويتدبر في معاني القرآن الكريم الذي كان زاده الروحي ومرجعه الكبير في خطبه ومواعظه، وكان يستلهم الصلابة والثبات والصمود من إيمانه العميق والمنهج الرباني في العسر واليسر والمنشط والمكره والرخاء والشدة

المحاضرة الرابعة إلياذة الجزائر

بنظمٍ شعري متميز ورصين، استطاع الشيخ زكريا بن سليمان بن يحيى بن الشيخ سليمان بن الحاج عيسى، الملقَّب بمفدي زكريا أن يُؤرِّخ لتاريخ شعب، ويبرز معالم نبوغه ونهضته ونضاله من أجل إثبات وجوده ونَيْل حريته وسيادته على أرضه عبْر فترات تاريخية متعاقبة شهدت بزوغ فجر البشرية وتنامت فيها حملات الغزو والاحتلال، أرَّخ للبطولة وللقيم السامية التي تحلَّى بها الشعب

الجزائري، وأظهر فخره بأمازيغية الأصل وبعروبة المنبع وبإسلام المعتقَد، متخذًا من هذه المقومات الأساسية لُحمة الشعب الجزائري وكُنه وجوده في هذا العالم.

إنَّ مشوار الشَّاعر القدير المُسْتَلْهَم من دراساته الخلدونيَّة والزيتونيَّة صقلَ قريحته اللغوية، وغذَّى روحه الوطنيَّة، وأضفى على سريرته النضاليَّة نزعةً ثوريَّةً ضد المحتل ومسحةً جماليَّة ودلالية توَّاقة لوصف جمال الجزائر والهيام في سحرها.

من عبقرية مفدي زكريا في الشعر الربطُ الرائعُ بين العقيدة وجمال الطبيعة في شطر واحد، في قوله:

فلولا جمالك ما صحَّ ديني

وما أن عرفت الطريق لربي

إشارة جليلة لقول الله تبارك وتعالى: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ولَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (سورة الحج، الآية: ٤٦).

ومن المآثر التي تتجلَّى في إلياذة مفدي زكريا تلك الرغبةُ المتأصلة في الشعب الجزائري، الداعية لتحرير فلسطين المغتصَبة والآملة في توحيد الأمة العربية والإسلامية في زمنٍ لا مكان للفُرقة والضَّعف فيه.

إلياذة الجزائر ملحمةٌ ليست كالملحمات، وكلماتٌ ليست كالكلمات. إلياذة الجزائر ليست أساطيرَ هوميروس ومَن نحا نحوه؛ بل ديوان شعر ... بل ألبوم أمة يحتفظ للأجيال بصور التَّاريخ العريق والحب العميق لمبادئ السلام وحرمته ولحرية الإنسان وكرامته.

اختلج تركيبَ الأبيات الشعرية ذكرٌ للقيم الجمالية والتاريخية والوطنية؛ فالقيم الجمالية هي كل وصف لجمال الطبيعية التي حبا الله بها الجزائر وللمواقع الأثرية. أما القيم التاريخية فهي بيان لمختلف المحطات التاريخية التي شيدتها بطولة الشعب الجزائري. وأما القيم الوطنية: فهي تركيبة الشخصية الجزائرية من إسلامها وأمازيغيتها وعروبتها.

ولعلَّ التناص القرآني هو مَن أعطى لإلياذة الجزائر بُعدًا جماليًّا ونسقًا إبداعيًّا مميزًا تجلَّت فيه أعظم الدلالات القرآنية والتعاليم السمحة للإسلام.

حاولت أن أقدِّم مقاربةً تاريخية في هذا البحث المتواضع الموسوم بـ «ملحمة الجزائر»، وأن أراعي التسلسل التاريخي الوارد في الإلياذة، مستلهمًا التوضيح والاقتباس من المصادر الموثقة، متخذًا الحيطة من أباطيل المستشرقين وأراجيف الحاقدين.

بعد التغني بجمال الجزائر وذكْر شمائلها يشق بنا الشاعر مفدي زكريا عُباب بحر التاريخ بشموخٍ، مستظهرًا معالم الإعجاز في النضال والجمال وتقبُّل الإسلام دينًا، والعربية لغة والجزائر وطنًا. طبع التذكيرُ بأمازيغية الشعب الجزائري وتبنِّيه للعروبة واعتناق رعيله الأول للإسلام الإلياذةَ برونقٍ من الشمائل الوطنية التي جعلت من الجزائر بالفعل مطلعَ المعجزات وحُجَّةَ الله في الكائنات.

يتطرَّق الكتاب الذي بين أيديكم إلى أبرز الوقائع التاريخية، خاصة منذ العهد الفينيقي الذي شهد تعايش الفينيقيين، ووصولًا إلى ما بعد استعادة السيادة الوطنية.

أبحر الفينيقيون من فينيقيا واستقروا بسواحل البحر الأبيض المتوسط في القرن ١٢ق.م، وأسَّسوا فيها الموانئ وطوَّروا التجارة والصناعة، ثم أسَّسوا قرطاجة فمدينة الجزائر «إيكوسيم» في القرن ٦ق.م. عُرف السكان الأمازيغ بالنوميديين. كان نظام الحكم لديهم ملكيًّا بعدما كان قبليًّا، وما لبثوا أن أعلنوا الثورة ضد جَور القرطاجيين. برز ماسينيسا كأعظم ملك بربري، واستطاع بعد معركة زاما الشهيرة أن يوحِّد نوميديا وتزدهر في عهده الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية.

كانت روما تتحيَّن فرصة احتلال الجزائر منذ ٢١٣ق.م، وجمعت لذلك الجيوش، وألَّبت صدور المناوئين للإطاحة بها. أُجبر البربر على الدخول في عهدٍ استعماري روماني لازم حياتهم جورًا وقهرًا. تزعَّم يوغورطا حركةَ التمرُّد على روما وأسَّس لنظام سياسي مستقل عنها.

أشهر مَن جاء من بعده يوبا الأول الذي أعلن الحرب على قيصر، ثم يوبا الثاني العالِم والفيلسوف، واتخذ من شرشال عاصمةً للمملكة النوميدية. خرجت المقاومة من القصر الملكي ليتزعَّمها رجال المقاومة، مثل: تاكفاريناس وفيرموس وأعلنوا الحرب ضد الاستعمار الروماني.

حلَّ الوندال بِعُدَّتهم وعتادهم وهمجيتهم مستعمرين للأراضي الجزائرية منذ سنة ٤٢٨م، وفي حربهم الشرسة ضد القائد بونيفاس، احتلوا عنابة سنة ٤٣١م، واتخذوها عاصمة لمملكتهم، وقُتل القسيس أغستنس في معركة فك الحصار وهو

يدافع عن الجزائر. بوفاة جنسريق، اشتد عضد المقاومة الأمازيغية في المنطقة الشرقية للجزائر، فكان النصر حليفها سنة ٤٨٣م.

خلَفت بيزنطة الوندال وأعلنت سطوة القهر والاستعباد على رقاب الأمازيغ، لكن ما فتئت أن انتظمت المقاومة الأمازيغية مرة أخرى بعد مرور ١١٣ سنة من الاحتلال البيزنطي.

قُتل جرجير، ودبَّ الخور في البيزنطيين، وأفل ليل الاستعمار، وأشرقت شمس الإسلام على العالم مبشرةً بعهد جديد لا عبودية فيه إلا لرب العالمين.

قَدِم العرب الفاتحون إلى شمال إفريقية لأول مرة سنة ٢٢ للهجرة، وعُيِّن عقبة بن نافع الفهري — رضي الله عنهما — واليًا على إفريقية في خلافة يزيد بن معاوية، سنة ٦٢هـ/٦٨٢م، وأعلن الحرب على كسيلة بن لزم القائد البربري. قُتل عقبة في معركة تهودة رفقة أبي مهاجر. بعدما عيَّن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان سنة ٦٩هـ/٦٨٨م زهير بن قيس البلوي واليًا على إفريقية، جهز جيشه في طلب كسيلة وجنوده فوقعت معركةٌ قُتل فيها كسيلة. تولَّت دهيا بنت تابتت بن تيفان الشهيرة باسم الكاهنة أمرَ الأمازيغ فأعلنت الحرب على حسان بن النعمان، ثم تُوفيت سنة ٨٢هـ/٧٠١م بعدما أوصت أبناءها وقبيلتها الأمازيغية باعتناق الإسلام.

عمل حسان على ترقية التعايش العربي الأمازيغي، فعرَّب الدواوين وجنَّد الأمازيغ تجنيدًا طوعيًّا، ونظَّم الخراج والأسواق فتوسَّعت رقعة الإسلام في بلاد الجزائر وفهموا تعاليمه، وفتحوا تحت قيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد أفريقيا والأندلس.

ما إن استتب الأمن في بلاد المغرب حتى بدأ التصدُّع ينخر جسم الأمَّة فعادت ثورات البربر في الجزائر من جديد رافعةً راية الخروج عن الإمارة الإسلامية، واتخذ التيار الخارجي بداعي النقمة مذهب الصفرية، وانتقل الصراع في بلاد المغرب من حراك مذهبي إلى حرب جارفة بين المسلمين، ظهرت على إثرها دويلات مستقلة؛ الدولة الرستمية بمنطقة الزاب وقسنطينة وتلمسان، والدولة الإدريسية بمنطقة وهران وشلف ومعسكر، والدولة الأغلبية سكيكدة وسطيف وميلة. تولَّى عبد الرحمن بن رستم حكم الدولة الرستمية بتيهرت؛ فكانت إسلامية في قضائها، عربية في معارفها، بربرية في عصبيتها، وفارسية في إدارتها، وإباضية في مذهبها.

وهي أول دولة إسلامية بقيادةٍ بربرية نشأت في الجزائر. أسَّس عبد الرحمن بن رستم لنظام الشورى في الجزائر، وعرفت في عهده ازدهارًا اجتماعيًّا واقتصاديًّا

وأدبيًّا وحضاريًّا. نبغ في منطقة الزاب عدد من الأدباء والشعراء أمثال بن تميم الطبني ومحمد بن هانئ بن سعدون الأزدي.

تأسَّست الدولة الفاطمية في الجزائر على أنقاضِ صراع بين الأغالبة والرستميين. أسَّس بلكين أشير، ثم مدينة الجزائر على أسسِ مدينة إيگوسيوم سنة ٣٤٩هـ/٩٦٠م، وسُميت «جزائر بني مزغنة».

تأسَّست الدولة الحمادية سنة ٤٠٥هـ/١٠١٤م معلنةً ولاءها للعباسيين في بغداد بعد سقوط الدولة الزيرية، أسَّسها حماد بن بلكين ونبغ فيها الناصر بن علناس. اشتهرت بجاية بالعلم والفنون وتطوُّر الصناعة الحربية وأواني النحاس والفضة، كذا صناعة الشمع وازدهار تجارتها الخارجية.

عرفت الفترة الحمادية هجرة الهلاليين الشهيرة إلى المغرب العربي، وخاصة إلى الجزائر، وعرَف المذهب المالكي أوج انتشاره في عهد الحماديين من قِبَل أبي حفص عمر بن الحسين الصابوني رئيس السادة المالكية في الجزائر في نشر المذهب المالكي. انتهى حكم الدولة الحمادية من بجاية على يد المرابطين، وأقام يوسف بن تاشفين دولة المرابطين التي دعا لها المهدي بن تومرت.

تولَّى عبد المؤمن بن علي الكومي الزناتي رئاسة الدولة الموحدية، واعتمد المذهب المالكي، وحمل السكان الأمازيغ للعمل بمذهب الإمام مالك رضي الله عنه. اشتُهر في العهد المؤمني أبو مدين شعيب الأندلسي دفين تلمسان.

قامت على أنقاض الدولة الموحدية ثلاث دول: الحفصية، والمرينية، والزيانية، وظهر هذا الانقسام في فترة تأهب العالم المسيحي لاحتلال العالم الإسلامي.

في عهد الدولة الزيانية، ظهر أبو يحيى يغمراسن بن زيان الوادي، فشهدت تلمسان في عهده نموًّا كبيرًا.

ما لبثت الإمارات الإسلامية أن تبسط نفوذها حتى بدأت جحافل الإسبان الصليبية تحوم حول حمى الجزائر. دخل الغزاة الإسبان مرسى وهران سنة ٩١١هـ/١٥٠٥م بتواطؤ يهودٍ بغيض، كل ذلك في ظل هوان للدولة الزيانية.

في سنة ١٥١٦م لبَّى الأخوان «عروج» و«خير الدين» لنداء الجزائريين، فكان لهما دور كبير في رد الهجمات الإسبانية عن الجزائر. حكم الجزائرَ العثمانيون، ولم يكن حكمًا مزيلًا لثوابت الشعب الجزائري؛ بل كان معزِّزًا له. كانت علاقة فرنسا بالجزائر ودية مبنية على مصالح مشتركة، حصلت فرنسا على امتيازات تجارية واقتصادية ودبلوماسية.

تقوَّت فرنسا من دعم الجزائر إلا أنَّ مشروعها «الحضاري» في استعمار الجزائر كان دائم الحضور في اجتماعاتها وتحالفاتها، وكُلِّف «بوتان» لإعداد خطة هجوم على الجزائر من سيدي فرج في يوليو ١٨٠٨م. لجأت فرنسا إلى اعتماد وساطة اليهوديَّيْن ابن زاهوت ونافتالي بوشناق في تخليص ديون فرنسا نحو الجزائر، وهما اللذان يئول لهما حصار الجزائر والحملة عليها ثم احتلالها، وكانت حادثة المروحة من سنة ١٨٢٧م سببًا واهيًا لقرار غزو الجزائر.

تحطَّم الأسطول الجزائري في معركة نافارين من نفس السنة، ووقع أول إنزال بحري للقوات الفرنسية سنة ١٨٣٠م، ولم يقم الجيش التركي بأي محاولة للدفاع؛ بل يُحسب على الحكم العثماني في الجزائر أنَّ الباشا حسين وقَّع معاهدة الاستسلام في ٥ يوليو ١٨٣٠م مع شارل العاشر دون أية مقاومة.

منذ أن وطئت أقدام الفرنسيين أرض الجزائر بدأ التفكير والإعداد لصد عدوانها عن طريق الثورات الشعبية المنطلقة من المساجد بزعامة الطرق الدينية التي هزَّت أركان فرنسا؛ فقد كان السبق العظيم للأمير عبد القادر في تأسيسه للدولة الجزائرية الحديثة. واتسع أفق الثورات الشعبية الجزائر كلها، وكان أبرزها: ثورة الحاج أحمد باي، وثورة أولاد سيدي الشيخ، وثورة محمد بن تومي شوشة وبن شهرة، وثورة الزعاطشة، وثورة محمد الأمجد بن عبد الملك المعرف بالشريف «بوبغلة»، وثورة الصبايحية، وانتفاضة أولاد عيدون بالمليلية، وثورة لالة فاطمة نسومر، وثورة المقراني والشيخ محمد أمزيان الحداد وبومرزاق، وثورة الحسين بن أحمد الملقَّب بمولاي الشققة، ويحيى بن محمد، وأولاد بن عاشور، وثورة الشيخ بوعمامة، وثورة الشيخ آمود ... إلخ.

برزت الحركة الوطنية الجزائرية بداية من نشاط محمد البدوي، ثم تشكَّلت حركة «الشبان الجزائريين» المطالبة بإلغاء قانون الإنديجينا، وأضاف الأمير خالد دفعًا للحركة الوطنية، وتعزَّزت بنشاط جمعية العلماء المسلمين.

مباشرة بعد إعلان انتصار الحلفاء في الحرب العالمية الثانية، خرج الشعب الجزائري فرِحًا به معتقدًا وفاء فرنسا بوعدها لنَيل الاستقلال، فكان رد «الجميل» بمجزرة مروعة استُشهد فيها ٤٥ ألفًا من الجزائريين، حلت على إثرها كل الأحزاب السياسية، وألقت القبض على الزعماء السياسيين والإصلاحيين. تقرَّر سنة ١٩٤٧م تكوين منظمة شبه عسكرية بقيادة محمد بلوزداد، ثم تأسَّست «اللجنة الثورية للحرية والعمل» في شهر مارس ١٩٥٤م. وفي ٢٥ يونيو ١٩٥٤م اجتمع الأعضاء الـ ٢٢ من المناضلين الذين آمنوا بالعمل المسلح.

قامت ثورة أول نوفمبر ١٩٥٤م المباركة ودوَّى صداها في الداخل والخارج، وكان رد فعل فرنسا على الثورة الجزائرية متوقَّعًا: القتل الجماعي، والاغتيالات، والتشريد والتعذيب، والمحاكمات الجائرة ...

لكن على الرغم من ذلك لم يتخلَّف الشعب الجزائري عن موعد الثورة التحريرية.

كان لهجوم ٢٠ أغسطس ١٩٥٥م ومؤتمر الصومام ٢٠ أغسطس ١٩٥٦م الأثرُ الإيجابي في فك الحصار على الثورة ودفع قوَّتها، ولمظاهرات ١١ ديسمبر ١٩٦٠م ومظاهرات ١٧ أكتوبر ١٩٦١م دورٌ في إسماع صوت الجزائر في المحافل الدولية.

بعد رفض تام لأي تفاوض، ها هي فرنسا تقبل بالأمر الواقع، وتدخل في مفاوضات مع الثورة الجزائرية، انتهت بإجراء استفتاء لتقرير المصير في يوليو ١٩٦٢م، ثم الإعلان عن استقلال الجزائر في ٥ يوليو ١٩٦٢م بعد حربٍ قدَّم فيها الشعب الجزائري التضحية والفداء وشارك فيها حتى الحيوان.

عهد جديد بعد الاستقلال لاح في سماء الجزائر مبشرًا بالعيش الرغيد في كنف سياسة مستلهمة قواعدها وسياساتها من بيان أول نوفمبر الذي أسَّس مشروعها على قواعد عقدية وتحررية ودوافع للرقي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي.

إنَّ الجزائر التي تغنَّى بها مفدي زكريا في إلياذته هي جزائر المعجزات في بطولاتها ومبادئها وحبها لتحرُّر الأوطان المضطهدة وغبطتها في الوحدة العربية والمغاربية والإسلامية، إنها جزائر المعجزات في علمائها من صف أبي حمزة والأخضري وأبي مروان والشيخ طفيش محمد بن يوسف وابن الفكون ومحمد القسنطيني وعبد القادر البجاوي وحمدان بن الونيسي وابن باديس والشيخ عاشور، إنها جزائر المعجزات في تواصلها مع العالم العربي والإسلامي، وفي استلهام نخبتها الوطنية من مناهج النهضة الحضارية في المشرق العربي للشيخ رضا ومحمد عبده وجمال الدين الأفغاني وتوري السموري وعمر المختار وشامل الداغستاني وسليمان الباروني وشكيب أرسلان.

إنَّها كذلك جزائر المعجزات في حفاظها على ثوابت الأمة وعنايتها بدور العبادة والمساجد، وإقامتها لملتقيات الفكر الإسلامي، وحفاظ نسائها ورجالها وشبابها على مبادئ الدين القويم وارتباطهم بوطنهم المجيد.

هذا رغم زيغ وانحراف بعض المحسوبين على الطبع الأصيل للشعب الجزائري والذين صدر عنهم بعض الانحراف الخلقي.

تلك خاتمة أو خلاصة «ملحمة الجزائر» حاولت أن أقف على أهم المحطات التاريخية التي ذكرها مفدي زكريا في الإلياذة بداية من:

جزائر يا مطلع المعجزات

ويا حجة الله في الكائنات

إلى:

إليك صلاتي وأزكى سلامي

بلادي بلادي، الأمان الأمان

إنها إلياذة الجزائر الزاخرة بالمواعظ التاريخية والمفاخر البطولية التي حُقَّ لكل جزائري أن يفخر بها ويحافظ على ما حقَّقه الرعيل السابق من أجل تطورها ونمائها بين الأمم، والبعيدة عن كل عامل من عوامل التفرقة بين الجزائريين.

فيا أيها النَّاس هذي بلادي

ومعبد حبي وحلم فؤادي

وإيمان قلبي وخالص ديني

ومبناه في ملتي واعتقادي

.